جامعة قسنطينة 2 – عبد الحميد مهري
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم التاريخ بالاشتراك مع:
مخبر الدراسات والبحوث في حضارة المغرب الإسلامي

الملتقى: الخطاب المذهبي في الغرب الإسلامي: السرديات والوظائف وتمثيل الاختلاف

الإشكالية والديباجة:

كان السعي لتثبيت المؤسسات الإسلامية وتنظيم الإدارة ببلاد الغرب الإسلامي عقب نهاية مرحلة الفتوحات إيذانا بانفجار صراعات جديدة بحمولة مذهبية ذات جذور مشرقية، وجدت فيها بعض القوى الاجتماعية منظومة فكرية تتيح لها إنتاج خطاب معارض للخلافة الأموية ثم العباسية رفضا لسلطتها وإدانة لممارساتها، ولم يكن هدا الاختلاف المذهبي الذي بدأت ملامحه تتبلور مند النصف الأول من القرن 2هـ/8م مجرد تناقض في تأويل فهم النصوص الدينية، حيث عبر في عمقه عن التناقضات الجديدة الموروثة عن الانتقال من واقع العصور القديمة إلى مرحلة الإسلام ودولته.

تشكلت بالغرب الإسلامي تدريجيا قوى متجاورة تتنافس على المجال والسلطة، وتتنازع فيها مشاريع متعدّدة حول سؤال الشرعية السياسية والدينية ، وحدود الجماعة والأمة، ومعايير السنّة والبدعة، وحق تمثيل الإسلام الصحيح والرد على المخالفين له. وفي خضم هذا التوتر الطويل تحولت المذاهب إلى حوامل للسلطة والهوية والانتماء، وأسهمت في إنتاج خرائط معقدة للتحالف والصراع، تداخل فيها الديني بالقبلي، والمعرفي بالسياسي، والمحلي بالمركزي، وقد تراوحت العلاقات بين التعايش والصراع، والقبول والرفض، وخضعت لإكراهات ممارسة السياسة والتوازنات القبلية وصعود ونزول الدول القوية.

لقد أفرز هذا الواقع تراثا هاما من النصوص الجدلية والسرديات المذهبية التي لا يمكن التعامل معها بوصفها مجرد مصادر ناقلة للأحداث، لأن جزءا معتبرا منها كتب بنزعة وظيفية داخل شروط الصراع ذاته، وفي سياق السعي إلى بناء شرعية مخصوصة أو نزعها عن الخصم. لذلك فإن صورة **الآخر** كما تظهر في كتب التاريخ العام والتراجم والطبقات والسير والفرق والمناقب والرحلات لا تمثل بالضرورة انعكاسا أمينا للواقع، لأنها -في أحيان كثيرة- بناء خطابي مقصود، تحكّمت فيه آليات الانتقاء والإقصاء والمحو وإعادة الترتيب لأجل خدمة الحاضر وليس تصوير الماضي.

انطلاقا من هذا التأصيل، يروم هذا الملتقى تجاوز دراسة تاريخ المذاهب بالغرب الإسلامي من منطلق التتبع الحدثي، إلى مسائلة الخطاب المذهبي والبحث عن مضمراته في البنى العميقة التي أنتجته، والوظائف التي أدّاها داخل المجتمع والدولة. إذ لا يمكن فهم كثير من صور التعايش والصراع، دون تفكيك أنماط الحجاج التي استندت إليها النصوص المذهبية، ولا دون إدراك الكيفية التي تحوّلت بها المقولات المذهبية المستندة إلى حجاج ديني إلى وسيلة لبناء الشرعية والسلطة والهيمنة داخل المجال الإسلامي. كما أن كثيرا من الثنائيات التي رسختها هذه النصوص من قبيل: الفرقة الناجية والفرق الضالة، أهل السنّة وأهل البدع، كانت جزءا من معارك اجتماعية وسياسية أوسع، وليس مجرد توصيفات معرفية، وكل ذلك دون أن ننفي فاعلية الروح الدينية، والقصد إلى إدراك الحق وتمثّله، والدفاع عن الحقيقة كما يتصورها المختلفون، سعيا إلى مقاربة تركيبية قادرة على دراسة الخطاب في مستوياته المتداخلة.

إن الإشكالية التي يتمحور حولها هذا الملتقى تتمحور حول السؤال التالي: كيف أسهم الخطاب المذهبي في الغرب الإسلامي في بناء تمثّلات الذات والآخر، وما الآليات السردية والحجاجية التي اعتمدتها المتون المذهبية المختلفة لإنتاج الشرعية أو نزعها؟ وإلى أي مدى عكست هذه النصوص حقيقة الاختلاف الديني والفكري، أو مارست وظيفة سياسية ورمزية مرتبطة بصراعات السلطة والهيمنة؟ ثم كيف يمكن للمقاربة النقدية المعاصرة أن تفكك هذه الخطابات، وتعيد التمييز بين المعطى التاريخي والبناء الإيديولوجي داخلها؟